

تطور التصوف ما بعد الموحدين في الغرب الإسلامي.

**The development of Sufism after the Almohads period
in the muslim occident.**د. بلخير ليبدري¹، جامعة أبو بكر بلقايد-تلمسان، (الجزائر) /مخبر الدراسات الحضارية والفكرية.

Lībādrī Bēlḥīr ; department of history ;University of Tlemcen (Algeria).

belkheir20000@gmail.com

تاريخ النشر: 2023/07/31

تاريخ القبول: 2023/07/01

تاريخ الإستلام: 2023/05/15

الملخص:

تدور هذه الدراسة حول التصوف بالغرب الإسلامي ما بعد الموحدين، حيث تناولت فيها مفهوم التصوف مراحل ثم مراحل تطوره وأقطابه ودوره في مجتمع الغرب الإسلامي، هذا التيار بدأ يشق طريقه إلى بلاد المغرب انطلاقا من المشرق نتيجة عدة عوامل كان أهمها رحلات الحج والرحلات العلمية ودخول كتاب الأحياء للغزالي.

ومع قيام دولة المرابطين وتوسعها أخذ التصوف ينمو ويتطور رغم معارضته من قبل الفقهاء وبعض الأمراء، لكن في ظل دولة الموحدين وصراع الحرية الفكرية التي أبداهها سلاطين هذه الدولة والتي أعطت إهتماما للجانب الفكري والفلسفي والصوفي أضى أبو مدين شعيب قطب الصوفية في بلاد المغرب حيث أعطى دفعا للتصوف وترسيخه بين مختلف طبقات مجتمع الغرب الإسلامي. وبعد زوال دولة الموحدين زاد هذا التيار انتشارا وتوسعا خاصة زمن الزيانيين والمرينيين حيث وجد هذا التيار دعما كبيرا من قبل ملوك وسلاطين هذه الدول فانتشر في الحواضر والبوادي ولدى العامة والخاصة، وأصبح للمتصوفة مكانة اجتماعية وأضحوا من المقربين للسلطة. استمر هذا الوضع حتى القرن العاشر الهجري أين أخذ يتراجع ومكانته تزول نتيجة ما أدخل عليه من خرافات وبدع ولم يعد له ذلك الدور الروحي والثقافي في مجتمع الغرب الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: التصوف، الغرب الإسلامي، المرابطين، الموحدين، أبي مدين شعيب، الحركة العلمية**Abstract**

This study discusses Sufism in the post-Almohads era in western Islamic region; it dealt with the concept of Sufism and its development stages, poles and role in the Islamic society in the western Islamic region. This movement began to make its way to the Maghreb from the east for several factors such as scientific and pilgrimage trips and the entrance of Al-Ghazālī's books *ihyā' 'ulūm ad-dīn*. After the establishment and expansion of the Almoravid state, Sufism began to grow and developed despite the opposition of jurists and some princes. But under the Almohads' state and the intellectual freedom clash shown by the sultans of this state that gave attention to the intellectual, philosophical and mystical sides. Moreover, Shu'aib Abū Madyan is considered the pole of Sufism in the Maghreb region as he gave a boost to Sufism and its consolidation among the various classes of the western Islamic region. After the dissolution of the Almohads' state, this movement sharply spread and expanded, especially during the time of the Zayanids, Merinids. This movement found great support among the kings and sultans of these countries and, thus, spread in the cities and deserts, and among the public and the individuals. The Sufis gained a social status and became close to the highest authority. This situation continued until the tenth century AH, when it began to decline and its status started to diminish as a result of the intromissions that were introduced to this movement from myths and heresies which lead to the decline of its spiritual and cultural role in the western Islamic society.

Keywords: Sufism, Western Islamic region, Almoravids, Almohads, Shu'aib Abū Madyan, jurists, Scientific movement.¹ د. بلخير ليبدري، belkheir20000@gmail.com.

مقدمة:

لم يكن للتصوف شأن كبير، زمن المرابطين نظرا لهيمنة وسيطرة الفقهاء خلال تلك الفترة، ولكن بمجيء الموحدين، نشرت المعارف وأعطى اهتمام الفلسفة، فأصبح بذلك التصوف ظاهرة مألوفة غير مرفوضة، ولجأت السلطة الموجودة إلى سياسة الاحتواء بدل القمع والطرء ابتداء من القرن السادس وما بعده، وبذلك بدأ التصوف ويعرف طريقة كظاهرة دينية واجتماعية وسلوكية في المجتمع المغربي في ظل الحركة والحرية الفكرية التي أطلقها الموحدون، والتي أنتجت فكرا وإبداعا. فأخذ تيار التصوف يتعمق وزاد انتشارا في كامل بلاد الغرب الإسلامي، وقد أعطى أبو مدن شعيب دفعا مهما لترسيخ التصوف ونشره ببلاد المغرب والأندلس، وبذلك عرفت فترة ما بعد الموحدين ظهور كبار متصوفة الغرب الإسلامي وأصبحوا شيوخا للمريدين وكل من جاء بعدهم.

لقد كانت ملامح التصوف بالغرب الإسلامي هي الإكثار من العبادات والزهد ومجاهدة النفس ومحاربة العدو، وقد تمكنت هذه الفئة المتصوفة من التأثير على مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في أقطار الغرب الإسلامي، وبسقوط الموحدين وظهور الدويلات الثلاث، وهم بنو حفص بالمغرب الأدنى وبنو مرين في المغرب الأقصى وبنو عبد الواد في المغرب الأوسط. امتدت حركة التصوف وانتشرت وكثر شيوخ هذا التيار في بلدان المغرب الإسلامي بعد أن أبدى ملوك وسلطين هذه الدول إعجابا وقبولا بالمتصوفة. باعتبار دورهم في التأثير على مختلف الطبقات الاجتماعية وبالتالي هدفوا إلى كسب الرعية بإرضاء رجال التصوف حتى أفتنح بهذا التيار رجال العلم والفكر والسلطين والعامه، وتمذهبوا به وأصبح سلوكا يقتدى به، خلال الفترة التي تلت سقوط الدولة الموحدين.

أخذت الحركة الصوفية تتغلغل وتترسخ بتعاليمها وسط عامة الناس بفضل ودور هؤلاء المتصوفة الذين تمكنوا من إقناع الناس بأفكارهم وسلوكاتهم التي تقوم على التقشف والعبادة والصبر والتواضع ومن دون شك فإن هذا التيار الصوفي أثر كثير في الحركة العلمية والثقافية في بلاد الغرب الإسلامي، لكن استمرار الغلو في تيار التصوف جعله يميل ويخرج عن صوابه، وجادته وهدفه، فحل الانحطاط والتراجع وبدأت الفتن وفقد التصوف والمتصوفة مكانتهم في المجتمع فانكست الحركة العلمية ابتداء من القرن 10 هـ / 16م.

1- مفهوم التصوف وتطوره:

إن البحث عن مفهوم أو تعريف واحد وشامل للتصوف من المشكلات التي تواجه الدارسين في هذا المجال، لأن التصوف تجربة روحية خالصة¹ وبالتالي فكل تعريف قد لا يعطي الكلمة حقها من المعنى الحقيقي لها، ولكن بعد تصفحنا لمختلف المصادر التي تناولت هذا المصطلح، قد نهتدي إلى تعريف عام وشامل، من ذلك أنه رياضة للنفس ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة ودفعه إلى تبني الأخلاق الحميدة كالزهد الصبر، والإخلاص والصدق والتعفف والأمانة. فكل صوفي يخضع تعريفه وتعبيره لتجربة خاصة في عصره وأفكاره.²

فالكثير من الناس لم يدركوا حقيقة اشتاق هذا المصطلح الصوفي، فيقال عليه أن الصوفي هذا المنقطع بهيمته إلى الله تعالى المتصوف في طاعته.³ فإذا كان الفقه هو منطق المسلمين، فإن التصوف هو فلسفة المسلمين وهو علمهم في الأخلاق.⁴

ومنه نخلص أن التصوف مبالغة في الزهد عن الحياة الدنيا، والتعلق بالحياة الأخرى، وعزوف النفس عن الدنيا وزينتها.⁵

وبالتالي فأصول التصوف مختلفة، فالبعض أرجعها إلى أصول إسلامية أي إلى الصُفة، وهي زاوية أقامها الرسول صلى الله عليه وسلم خارج مسجد الصفاء بالمدينة ذات حيطان ثلاثة، فكان بعض فقراء المسلمين يأوون إليها مخافة البرد والحر.⁶

أما ابن خلدون فيرى أن كلمة التصوف من الصوف الذي يرتديه المتصوفة، وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف⁷، أما اصطلاحاً فيعرف التصوف بأنه العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة.⁸

والخلاصة أنّ التصوف والصوفية مذهب روحي كان معروفا كنزعة إنسانية عند بعض الشعوب ذات الحضارات القديمة، هدفه تطهير النفس من المآثمة والذنوب، وهو اتجاه طارئ على العرب⁹ عرفوه ابتداء من القرن الثاني الهجري، فلفظ الصوفية لم يرد له إشارة لا في القرآن ولا في السنة النبوية، لكن يبدو أن اللفظ انبثق عندهم من حيث معناه عن الزهد والنسك، خاصة بعد ما رأى البعض انصراف الناس إلى الترف وإقبالهم عن الدنيا، ونظرا للتحويلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي عرفها المجتمع العربي الإسلامي،¹⁰ اتجه بعض الأفراد إلى تشكيل جماعات هدفها الإصلاح ومجاهدة النفس.

فسيادة الناحية الروحية، وانتشار التصوف وشيوع الزهد وذبوع الطرق الصوفية المختلفة، كل ذلك يكون قد أثر على الحاجة الاجتماعية واهتمامات الناس وتوجهاتهم ونظرتهم إلى الحياة والناس، والملاحظة أن هذا التيار لم يكن فقط لبسطاء الناس وعامتهم، ولكن عدد كبير من الفضلاء أصبحوا من المتصوفة. فكل الطبقات والفئات من علماء وفقهاء وملوك¹¹ أصبحوا يهتمون بالتصوف، الذي صنف كعلم قائم بذاته، وقد ضعف كعلما قائما بذاته.

وفي مقدمة ابن خلدون نجد تعريفه للتصوف قائلا: "هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة¹² وأصله: أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة والعباد وكان ذلك في عامة الصحابة والسلف."¹³ فهي إشارة من ابن خلدون وموافقته على أن التصوف علما من العلوم الدينية أو الشرعية، ويضيف صاحب كشف الظنون "أنه علم يعرف به كيفية ترقى أهل الكمال من النوع الإنساني، في مدراج سعادتهم والأمور العارضة في درجاتهم بقدر الطاقة البشرية"¹⁴ وقال أحدهم أنه بعض علم الأخلاق، وهو علم يبين فيه أكمل مراتب الأخلاق الفاضلة كأكمل مراتب التوحيد والتوكل والرضا بالقضاء¹⁵ أما فيما يخص مصادره ومنابعه.

فمن المعلوم كما أسلفنا أنه لم يرد لا في القرآن ولا في السنة إشارة إلى التصوف بالمفهوم الذي حددناه، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم مجتهداً في العبادة حتى تورمت قدماه، ولكنه نهى من أراد من أصحابه الانقطاع للعبادة وظهر بعده بالبصرة وغيرها نساك بالغوا في التعبد ونقل عنهم حكايات غريبة في التواجد لسماع القرآن فأنكر عليهم الصحابة والتابعين ذلك.¹⁶ واعتبروا ذلك تكلفاً وتصنعاً.

وبعد ذلك، وخلال فترة الخلافة العباسية، ظهر غلاة الشيعة الإمامية والإسماعيلية والقرامطة وتظاهروا بالزهد والنسك ونشروا دعائهم، في البلاد والغوا في العبادة وتعظيم آل البيت ونسبوا إليهم الكرامات وهو نفسه التصوف الذي عرفه اليونانيون والهنود قديماً، ثم انشقت منه المسيحية¹⁷ ودخلت لفظة التصوف اليونانية إلى العربية كما ترجمت كتب اليونان و الكتب الهندية في العهد العباسي الذي تزامن مع الاختلاف الديني والاضطراب السياسي، وأخذ التصوف في التوسع وتغير مفهومه كلما تطورت الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والذهنية، التي عرفها الدولة الإسلامية على اختلاف مراحل تطورها، والقوى السياسية والحضارات التي تأثرت بها مشرقاً ومغرباً.

لكن المصادر الأولى ومنابع التصوف الإسلامي تجلّت في محاولة تطبيق الآيات والأحاديث الدالة على التقوى والزهد وازدراء النفس والتقليل من حب الدنيا، إلا بما يرضي الله، والتمسك بمكارم الأخلاق والإصلاح وحب الخير للناس وتجنب كل ما يغضب الله، لكن الفتن التي تعرض لها المسلمون ودولة الإسلام بعد الرسول (ص) كمقتل عثمان وعلي ثم الفتن¹⁸ التي ظهرت أيام الأمويين والعباسيين وكذا مختلف التغيرات التي عاشها المسلمون من غنى وترف وتبدلات وملذات جعلت البغض يتجه إلى ما فيه الخير والصالح، ومنه نقول أن التصوّف كفكرة ونزعة قريبة من الإسلام الصحيح، غير أن العوامل السابقة الذكر من تغيّرات اقتصادية واجتماعية وفكرية كالفلسفة وعلم الكلام، كان له أثره الواضح على التصوّف في الغرب الإسلامي، خاصة. ومن العوامل الأخرى التي سمحت بانتشار هذا التيار وبقوة التقارب بين أقطار المغرب الإسلامي¹⁹، في ظل القوى السياسية التي حكمته، كالمرابطين والموحدين، ثم استمرار تدفق العلاقات الثقافية والفكرية بين أقطاره والأندلس. التي ظلت أيضا تابعة للقوى المذكورة في كثير من الأوقات مما أعطى إمكانيات الانتقال والاستقرار لرجال الفكر والعلم وأهل التصوف فكانت الخصائص الثقافية والأحوال الاجتماعية تحمل نفس الخصائص والحضارية.

(أ) دولة المرابطين:

ومن المؤكد أن التأثيرات الفكرية ظلت متواصلة ما بين المشرق والمغرب، ومن ذلك أن كتاب إحياء علوم الدين للغزالي يبقى أول وأهم مصدر للتصوّف أثر في بلاد المغرب والذي جمع بين علمي الظاهر والباطن²⁰ غير أن فقهاء المغرب أفتوا بحرق كتب الشيخ أبي حامد الغزالي، وأمر علي بن يوسف، الأمير المرابطي بإحراقها. فقد انتقد الفقهاء، فيها أشياء على الشيخ أبي حامد الغزالي وأعلموا السلطان بأمرها. وطالبوا بوجوب حرقها، وبعدم جواز قرائتها. فتأثير كتاب الأحياء لم يؤثر فقط في بلاد المغرب الإسلامي ولكن الأندلس أيضا وصلتها أفكار الغزالي. فتأثر متصوفة الأندلس بمتصوفة المغرب الإسلامي وامتد ذلك إلى ما بعد القرن الثامن الهجري. ومن ذلك نلاحظ تسرب التصوف من المشرق إلى باقي الغرب الإسلامي نظرا للترابط السياسي والعسكري الفكري بين هذه الأقطار منذ الفتح الإسلامي للمغرب والأندلس. وما تلى ذلك من أحداث المرابطون والتصوّف: في الواقع أن المصادر التاريخية تكلمت عن هذا الوضع الذي كانت تعيشه دولة المرابطين، أين كان الفقهاء يعيشون رفاهية وثراء بفضل قربهم من السلاطين والحكام المرابطين. واهتمامهم بهم منحهم مكانتهم ضمن الطبقة الخاصة، فهم المنظرين لسياسة اقتصاد المغازي الذي اعتمدها المرابطون، وهم من يفتي بشرعية توجيه الأمراء، واكتسبوا ثروات هائلة بعد تحالفهم مع النظام المرابطي.²¹

أما طبقة العامة فكان مستواها المعيشي منحط حتى وصفوا بالأنذال والسفهاء والأوباش والرعاع والهمج.. وحتى المدرسون وأئمة المساجد والمتصوفة كانوا ضمن طبقة العامة، وعلى رأسهم أبو عبد الله محمد الدقاق، شيخ كبار المتصوفة الذي عرف بفقره وضيق حاله، وكذلك مدرسو الكتاتيب، كانوا أكثر انحطاطا.²² ومنه نقول أن هذا التفاوت الطبقي في الثراء والمعيشة يكون قد أعطى أثره السلبي، وخلق صراعا بين الفقهاء لأثرياء والطبقات الفقيرة التي يُساندها تيار التصوّف الداعي إلى الزهد والتقشف والمساواة، بعيدا عن الترف والملذات التي كانت تعيشها السلطة والفقهاء رغم زهد وتقوى بعض سلاطين دولة المرابطين.²³ الذين لجأوا إلى مراقبة ومتابعة المتصوفة ومعاقبتهم أو قتلهم.²⁴

والحقيقة أن الفقهاء هم من كان وراء هذا الصراع، والعداء. فكان سلاطين المرابطين كانوا على درجة من الزهد والورع والتقشف والتدين ثم مساندتهم وتأييدهم لبناء الرابطات يدل على تقبلهم للتيار الصوفي والصوفية ككل. بل وكان ذلك تحت دعم وبركات رجال الصوفية.²⁵ وقد ذكر ابن خلكان أن أبا حامد الغزالي أثنى على يوسف بن تاشفين وقد قرّر زيارته ولقائه لكنه بوفاته تراجع عن ذلك.²⁶ وقد يكون ميمون بن ياسين وأبو بكر بن العربي من بين الذين أدخلوا كتاب

الغزالي إلى المغرب وبفضل تلك النسخ انتشر التصوّف وربما تلك النسخ حملت إشارات ضد الفقهاء المرابطين الذين سعوا وراء المناصب والأموال وفي ذلك تحقير لهم، ولذلك كانت مواقفهم عدائية من التصوف ومن كتاب الأحياء الغزالي²⁷. فصدر الأمر بإحراقه زمن علي بن يوسف بن تاشفين²⁸.

ب) دولة الموحدين:

أما فترة الموحدين، فقد شهدت نوعا من الحرية الفكرية والازدهار الثقافي، وقد سمح لهذا التيار بالانتشار والتوغل داخل إمبراطورية الموحدين وكان أكثر سلاطين الموحدين تقربا واقتناعا بالتصوّف والصوفية وهو الخليفة المنصور وربما يكون قد اكتسب ذلك من خلال والده يوسف، ومن مظاهر ذلك أن أحد وزرائه أصبح زاهدا متعبدا متقشفا رافضا السلطة²⁹ والجاه ولبس الخرقه وانعزل عن السياسة وفي هذا الشأن يذكر صاحب المعجب: "وأظهر بعد ذلك زهدا وتقشفا وخشونة ملبس ومأكّل، وانتشر في أيامه الصالحين..." وأهل العلم، حيث وقامت لهم سوق وعظمت مكانتهم منه ومن الناس، ولم يزل يستدعي الصالحين من البلاد ويكتب إليهم وسألهم الدعاء³⁰... "لقد تكونت من المغرب الأقصى، جماعات صوفية، تميزت باعتمادها واعتمادها الكتاب والسنة متأثرة بالقطب أبي مدين شعيب³¹. وأبي الحسن الشاذلي³² ويعرف عن الصوفية مقاومتهم للبدع والخرافات.

كما كان هناك متصوفة آخرون نذكر منهم: عبد الله بن عبد الحق السوسي رحل وسكن مكة، وأبو زيد عبد الرحمان الهزميري³³، وأبو علي بن أبي صالح المتصوف والزاهد، وعبد الرحمان بن أحمد الصنهاجي الفاسي³⁴. أما فترة ما بعد الموحدين وإلى غاية نهاية القرن التاسع الهجري وبعد تشكّل الدويلات الثلاث على خارطة المغرب الإسلامي كالحفصيين في المغرب الأدنى، وبنو مرين في المغرب الأقصى، وبنو زيان في المغرب الأوسط، وفي ظل تلك العلاقات المتدهورة والسيئة أحيانا والتي غلب عليها طابع الصراع والعداء والتوسع يكون ذلك قد جعل الكثير من المغاربة يميلون إلى العزلة وقبول الفكر الصوفي.

أما فيما يخص المغرب الأقصى، فكانت مُدنه كفاس ومراكش وغيرها والتي أسسها الأشراف تهتم بالحياة الروحية والتقوى إلى جانب الحياة الفكرية والسياسية باعتبار تلك المدن المراكز الرئيسية للإسلام في المغرب الأقصى³⁵. ورغم سيادة المذهب المالكي، فلم يكن الفقهاء المالكيين هم من يسيطر على الشؤون الروحية في المغرب الأقصى، بل كان هناك المتصوّفة والأولياء الأحياء منهم والأموات، فكان التأثير على العقل أقل، أما على عواطف الناس فكانت كبيرة³⁶. ففي فاس كان التصوّف معتدل وسّي ومعقول، وحتى ما بعد المرينيين لم يظهر عليها أثر البدع، وبذلك يتأكد اعتدال متصوّفة أهل المغرب الأقصى واتفاقهم مع الفقهاء حول كثير من القضايا³⁷ ويكون بذلك التصوّف قد تغلغل في أوساط العامة والخاصة وبالتالي أثره كان بالغاً على الحركة الفكرية في المغرب الأقصى، فسلاطين هذه الدولة لم يكن لهم حرج في انتشار وامتداد التصوّف، فسار سلاطين بنو مرين على خطى بنو زيان في التقرب وملازمة المتصوّفة الأحياء منهم والأموات، فمكانتهم الدينية والعلمية ظلت محترمة من قبل هؤلاء الحكام إلى درجة أنهم وضعوا شروط الملاقاة واستقبال سلاطين الدولة المرينية، وحتى نوّكد تواجد عدد كبير من المتصوفة بالمغرب نذكر منهم: الحسن بن عثمان التجاني ومحمد بن علي الكزولي ومحمد بن أحمد بن بكر بن يحيى المقري، وأبي عبد الله محمد بن إبراهيم الرندي ومحمد بن موسى الحلفاوي، الذي يساعد السلطان أبي عنان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاربة الخارجين عن طاعته، فمن هؤلاء المذكورين كان القاضي والإمام والخطيب، وبذلك نقول أن هؤلاء لم يكن دورهم العزلة والعبادة فقط، بل لهم أثر في نمو وتطوّر الحركة والفكرية والعلمية بالمغرب. وبالتالي فقد جمعوا ما بين السياسة والثقافة، فأثر هؤلاء المتصوفة لم ينته مع المرينيين، بل استمر تيار التصوّف قائما إلى غاية القرن 10 هـ على يد كثير من المتصوفة الذين حافظوا على مكانتهم ودورهم، فالمرينيين كما كان حال الزيانيين تقربوا من العلماء والشرفاء والصلحاء والمشايخ، لدعم مركزهم وسلطتهم³⁸.

وممن ألقوا في التصوف وما يتصل به، عبد الوارث الباصولتي صاحب "المسلك القريب الموصل إلى حضرة الحبيب"، أبو العباس أحمد الشعبي التاولي الصومعي ت 1013هـ، محمد بن أحمد المنساوي له: فوائد التصوف عبد الله من محمد الهبطي الطنجي، ت 1013م. محمد بن أحمد المنساوي له "فوائد التصوف"، عبد الله محمد الهبطي الطنجي ت 963هـ، ألف في دم البدع المتفشية في عصره وأيامه.³⁹

ج- الدولة الزيانية:

أما إذا انتقلنا إلى الدولة الزيانية بالمغرب الأوسط فنجد أن تيار التصوف وجد إقبالا كبيرا في مختلف طبقات مجتمع المجتمع باعتبار تلمسان كانت مقرا ومقاما للقطب أبو مدين شعيب، فقد كان وليا وشيخا للحواضر ومختلف المناطق المجاورة لتلمسان لذلك كان تأثيره كبيرا على العامة والخاصة واتسع نطاق التصوف، خاصة بعد الفترة التي تلت وفاة هذا الشيخ أبي مدين شعيب سنة 594 هـ- 1197م⁴⁰ ومثل ما كان يحدث في فاس ومراكش، كان متصوفة المغرب الأوسط يتبعون التصوف السني والاعتماد على الكتاب والسنة والابتعاد عن التصوف الفلسفي، فكان الجانب العلمي والتربوي أهم ما يميز متصوفة المغرب الأوسط.

وكما أشرنا فإن التصوف امتد إلى الطبقة الخاصة ونعني بذلك سلاطين الدولة الزيانية، فهذا السلطان يغمراسن نجده يحرص على التقرب من المتصوفة، لينال بركاتهم، ويحاول زيارتهم باستمرار، على الأخص الولي إبراهيم بن علي الخياط والشيخ الصالح أبو عبد الله بن عيسى في قصره⁴¹، ومن مظاهر تبرك السلاطين من الأولياء طلب يغمراسن دفن الولي الصالح ابن مرزوق إلى جانبه وتمت له الوصية على يد ابنه أبي سعيد وكان هذا الاعتقاد حتى عند سلاطين الدويلات المجاورة للمغرب الأوسط. فهذا السلطان المريني أبي يعقوب والسلطان الحفصي أبي زكريا كلاهما لم يجرؤ على الإساءة إلى أهل وأحفاد الصوفي أبي عبد الله محمد بن مرزوق⁴² وتلك إشارة إلى مكانة ودور المتصوفة في بلاد المغرب الإسلامي ما بعد الموحدين ومظهر من مظاهر تقديس الأولياء من قبل العامة والخاصة فنيل البركات أو التبرك كن أهم ما جعل العامة والخاصة يتقربون من الشيوخ والصلحين وأحيانا حتى من أحفادهم. وبذلك نالوا مكانتهم واحترامهم خاصة وأن معظم الشيوخ كان لهم أتباع ومريدين منتشرين في الزوايا والمساجد، وكان تأثيرهم يسري داخل مختلف طبقات مجتمع المغرب الأوسط ولنتأكد من ذلك نعود إلى كتاب البستان لابن مريم أو المجموع لابن مرزوق، أو بغية الرواد ليحي بن خلدون لنُحْصِي الأعداد الكبيرة والأسماء التي ورد ذكرها في هذه المصادر فقط في تلمسان وبجاية نجدها كثيرة جدًا. وهذا يؤكد انتشار وتوغل تيار التصوف داخل المغرب الأوسط بعد زوال دولة الموحدين، ومن هؤلاء الشيوخ والصلح، أبو علي الحبال الصنهاجي⁴³ ت 613هـ، 1216م، أبو محمد المجاصي (البكاء)⁴⁴ ت 741هـ- 1341م أبو إسحاق الطيار⁴⁵ توفي نهاية القرن السابع الهجري، والشيخ أبو عبد الله بن أبي بكر بن مرزوق ت 681هـ، الفقيه والمتصوف. فكانت أعمالهم لا تخرج عن العبادات الصلوات، المذاكرات، الوعظ مع العامة والخاصة.

وقد استمر الفكر الصوفي خلال القرنين 8 و9هـ، وقد كثر الشيوخ والمريدين وأصبحت أعدادهم في تزايد، وخلاصة حياتهم ومعيشتهم قد غلب عليها الزهد والتقشف والابتعاد عن ملذات الحياة ونعيمها⁴⁶. وقد اهتم المتصوفة عدّة حرف كالخياطة⁴⁷ والحاكة⁴⁸ وتعليم القرآن⁴⁹ بدون أجر، وبعضهم كان يعيش على بيع حزم الدوم ويتصدق بجزء من المداخيل على الفقراء⁵⁰. ومثل ما رأينا في المغرب الأقصى كانت فيه السيادة للمذهب المالكي، فإن الدولة الزيانية عرفت عودة هذا المذهب بقوة، ولكن ظل التعايش قائما بين المتصوفة والفقهاء، وقد يعود ذلك إلى مواقف سلاطين هذه الدولة الداعم للمتصوفة. ومن جهة أخرى فإن التصوف الفلسفي، الذي كان يسود الأندلس لم يجد له طريقا إلى بلاد المغرب الأوسط، فالمتصوفة الذين ذكرتهم المصادر، كانت نزعتهم سنيّة سلمية بسيطة⁵¹ ولهم تأليف توجي بالتوجه السليم والهادف لمتصوفة المغرب الأوسط⁵².

- لكن ابتداء من القرن التاسع الهجري بدأت تيار التصوف يخرج عن إطاره الصحيح والسليم خاصة بعد انتشاره في الأرياف والبوادي بشكل واسع، في ظروف أخذت فيها العلوم الرئيسية والعقلية تتراجع وتتداخل الثقافة الدينية والعلمية بالخرافات والبدع والشعوذة، كالغناء والرقص والتبرك بالأولياء بشكل كبير وواسع فكانت بداية الصراع والعداء بين الفقهاء السنيين والمتصوفة الجدد، وخاصة ما تعلق بالمعتقدات⁵³ والمسائل السلوكية للصوفية إلى غاية القرن العاشر الهجري أين فقد التصوف أهميته ومكانته الاجتماعية وحدث الانهيار والانكسار لهذا التيار ورغم وجود بعض المتصوفة الكبار كمحمد بن عمر الهواري 751هـ/843هـ- ابراهيم الشاذلي ت 806هـ وعبد الرحمان الثعالبي ت 875هـ. محمد بن يوسف السنوسي ت 895هـ.⁵⁴

هـ- الأندلس:

أما الأندلس، ففيها وجه آخر، لأن ظروفها وأوضاعها كانت مختلفة نوعا ما عن بلاد المغرب الإسلامي في بعض الأحوال والأحيان. فهناك وجدت الفلسفة التي طغت على التصوف وتداخلت به، فالتصوف الفلسفي في الأندلس ربما يرتبط بآب بن مسرة وأتباعه ومريديه في باقي إسبانيا، لقد أسست عدة مراكز تصوفية في قرطبة وضواحي ألمرية واشبيلية وغرناطة⁵⁵ والبرتغال، إلى درجة أن كثرة هؤلاء أصبحت تقلق فقهاء المرابطين كما أسلفنا سابقا. مع العلم أن التصوف المشرقي امتد إلى المغرب والأندلس، ويبدو أن هذا التداخل هو ما يساعد على تشكل جماعات المتصوفة. فالصوفي أبو مدين شعيب كان له أثر ودور في انتشار التصوف بالأندلس حتى قيل أنه كان شريكا للطريقة الشاذلية⁵⁶ ومن مظاهر التأثير المشرقي على الغرب هو توجه لسان الدين بن الخطيب الذي سار على طريقة الششتري ويقتفي أثره في أزجاله⁵⁷. فهذا المتصوف عاش في القرن السابع الهجري بالأندلس فقد درس هذا الأخير الفلسفة والمذاهب الفلسفية حتى وجدت معاني قصائده وكتاباته فيها توجه فلسفي متأثرا بفلاسفة اليونان ومذاهبهم، ومن جهة أخرى نجده يهتم بالتصوف ورجاله مثل يعي بن سراقه الشاطبي (662هـ-1254هـ) وحضر حلقات أبي مدين شعيب⁵⁸، كما عرف فلسفة الإسلام تحت إشراف معلمه ابن سبعين الذي كان هو الآخر متفهما في الفلسفة اليونانية. ومع ذلك تأثر أكثر بآب بن سبعين مما جعله يتوجه إلى التصوف الفلسفي فنجد أن الغبريني والمقريني والتنبكي كلهم يشيدون بأشعاره وأزجاله

- ومن مظاهر الإعجاب والتأثر به أيضا نجد الصوفي ابن عباد الرندي 790/1388هـ في كتاباته يراود متصوفة المغرب الأقصى بضرورة قراءة أبيات وأزجال الششتري⁵⁹، الملحونة. وهذا دليل آخر على محاولة التأثير على متصوفة المغرب الإسلامي ومصر. حتى أن ابن تيمية عندما يذكر فلاسفة اليونان يعثر على اسم الششتري معهم. والخلاصة أن التصوف ظل علما ودينا وثقافة روحية التي عادة ما ترتبط بشيوخ يحققون هذا الإشباع داخل خلية أو جماعة، وقد حافظت هذه الثقافة الروحية على بقائها وتمكنت من الحفاظ على وحدة الطبقات وتكتلها رغم ما دخلها من السلبيات⁶⁰.

الخاتمة:

الكل يتفق على أن التصوف كتيار وظاهرة انتقل وامتد من المشرق الإسلامي إلى مغربه ثم الأندلس، وبذلك أصبح الغرب الإسلامي كله يعيش ويعرف التصوف. وقد كان لكتاب الغزالي "الأحياء"، وكتب أخرى، ثم الرحلات إلى المشرق، الأثر البالغ على انتشار ظاهرة التصوف ببلاد الغرب الإسلامي، فمع المرابطين بدأ هذا التيار يعرف طريقه إلى المغرب الإسلامي، ثم بمجيء الموحدين ونظرا للحرية الفكرية والتحرر الذي عرفته العلوم خلال هذه المرحلة انتشر التصوف أكثر وسط العامة والخاصة، لكن يبدو أن أكبر انتشار واعتناق لهذا التيار جاء بعد زوال الموحدين وتشكل دويلات بالمغرب الإسلامي كالمرينيين بالمغرب الأقصى، والحفصيين بتونس، والزيانيين بالمغرب الأوسط فقد وجد تيار التصوف كل السبل الظروف للانتشار والتغلغل داخل مختلف طبقات المجتمع، وذلك بعد الاهتمام الذي منحه سلاطين تلك الدول للتصوف ورجاله. فقد حاول بعض السلاطين من التقرب والتبرك بالصلحاء والشيخ المتصوفة لنيل رضاهم وبركاتهم ودعائهم.

فخلال القرنين 8 و9 الهجريين بلغ التصوف درجة عالية من الانتشار والتوسع واعتنقه وانشغل به العامة والخاصة في مختلف بلدان المغرب الإسلامي، فبرزت أعداد كبيرة تذكرهم المصادر كابن مريم ويحيى بن خلدون والغبريني والتنيكتي وغيرهم الذين انتشروا مشرقا ومغربا ولهم مرددين، وأتباع بأعداد كبيرة داخل المساجد والزوايا. وبغض النظر عن أسباب وظروف التصوف، فإن هؤلاء المتصوفة كانت لهم مشاركات وأدوار في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية، فكان منهم العلماء والفقهاء والأئمة والحرفيين والتجار، فمساهماتهم كانت متفاوتة وهامة تختلف من فترة لأخرى ومن دولة لأخرى، فمكانتهم لا ينكرها أحد، فكان منهم الشيوخ والأقطاب والصلحاء ومعظم هؤلاء كانوا يتبعون التصوف السني، ما عدا البعض وخاصة بالأندلس كانوا يتبعون التصوف الفلسفي الذي يبدو أنه لم يجد إقبالا من الطبقات الاجتماعية.

وبحلول القرن العاشر الهجري بدأ هذا التيار يفقد مكانته وأهميته وأدخلت عليه بعض البدع والخرافات والعادات السيئة التي غلب عليها الجهل بعلوم الدين. والتي كانت وراء تراجع الحياة الفكرية والعلمية وحتى الدينية ببلاد الغرب الإسلامي.

فالتصوف، ورغم اهتمامه بالعبادات والزهد والتقشف، ظهر دوره أيضا الروحي والاجتماعي والتربوي لاسيما في إقامة الزوايا والاهتمام بالتعلم وإيواء الطلبة ومساعدة المحتاجين.

الهوامش (الإحالات):

- ¹ بوداود عبيد، ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنين 7 و9هـ، (13-16) مدار الغرب للنشر والتوزيع وهران 2002، ص 31.
- ² ابن الجوزي البغدادي أبو الفرج، جمال الدين: تكميل إبليس، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ص 147.
- ³ أبو يعقوب يوسف بن يحيى الشاذلي المعروف بابن الزيات، التشوق إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، ط2، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 1997، ص 34.
- ⁴ عبد المنعم حنفي، الموسوعة الصوفية، أعلام التصوف والمنكرين عليه والطرق الصوفية، دار الرشاد للتوزيع والنشر، ط1، 1992، ص 21.
- ⁵ مصطفى عبد الكريم الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996، ص 106.
- ⁶ سميح عاطف الزين، الصوفية في نظر الإسلام، دراسة وتحليل، الشركة العالمية للكتاب، بروت، 1993، ص 14.
- ⁷ عبد الرحمان بن خلدون ت 808هـ، المقدمة، دار الكتاب، العلمية، بيروت، 1992، ص 465.
- ⁸ عبد الرحمان بن خلدون، المصدر السابق، ص 467.
- ⁹ مصطفى عبد الكريم الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، 1996، ص 107.
- ¹⁰ الفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي إلى اليوم، تر: عبد الرحمان بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1987، ص 368.
- ¹¹ الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، منشورات عكاظ، الرباط 1990، ص 66، ابن مريم المتني المديوني التلمساني، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، تج: عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت 2014، ص 231.
- ¹² أحمد بن يحيى الونشريسي، كتاب الولايات ومناصب الحكومة الإسلامية والخطط الشرعية، نشر محمد بلغيث، مطبعة لافوميك 1985، ص 21، عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص 490.
- ¹³ عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 2007، ص 490.
- ¹⁴ حاجي خليفة مصطفى، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مج1، دار الكتب العلمية، بيروت 1992، ص 413.
- ¹⁵ محمد بن أبي بكر المرعشي-الساجلي، دراسة وتحقيق محمد بن اسماعيل السيد أحمد، رسالة ماجستير في علم المكتبات والمعلومات، كلية الآداب، جامعة الملك عبد العزيز 1981، ص 154.
- ¹⁶ مبارك محمد الميلي، تاريخ الجزائر القديم والحديث، تقديم: محمد الميلي، ج2، مكتبة النهضة، الجزائر 2011، ص 340.
- ¹⁷ مبارك الميلي، المرجع السابق، ص 341.
- ¹⁸ سليمان دنيا، التفكير الفلسفي الإسلامي، مطبعة السنة المحمدية، مكتبة الرشاد، المملكة المغربية، ص 329.
- ¹⁹ بوداود عبيد، المرجع السابق، ص 37.
- ²⁰ نفسه، ص 40، أبو العباس بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج2، تج: جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء 1954، ص 67.
- ²¹ إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2000، ص 129.
- ²² إبراهيم القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص ص: 1182-169.
- ²³ فقد كان يوسف بن تاشفين يعظم العلماء ويصرف الأمور إليهم ويأخذ فيها برأيهم صحب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تج: سهيل زكار، عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة للنشر والتوزيع، دار البيضاء، 1979، ص 82.
- ²⁴ بوداود عبيد، المرجع السابق، ص ص: 54-53.
- ²⁵ الحسن السائح، الحضارة الإسلامية في المغرب، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء 1982، ص 189.
- ²⁶ ابن خلكان أبو العباس، شمس الدين بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ج7، تج: إحسان عباس، دار صادر بيروت 1977، ص 125.
- ²⁷ محمد بن شريفة، الأمير المرابطي محمد بن ياسين، حياته وحجه 470-530هـ، كتاب دعوة الحق، ع1، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب 2002، ص 96.

- 28 نفسه، ص 97.
- 29 ساعد خميسي، مذهب ابن تومرت العقدي وأثره على الحياة الفكرية، في العهد الموحد، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، 2007، ص 303.
- 30 عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تقديم وتحقيق محمد زينهم، ومحمد عزب، دار الفرحاتي للنشر والتوزيع، القاهرة 1994، ص 278.
- 31 الغبريني، المصدر السابق، ص 28-30، ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقيير، مج، محمد الفاسي وأدولف فور، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965، ص 64.
- 32 صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي، نكت الهميان في نكت العميان، تح: أحمد زكي، مطبعة الجمالية، القاهرة 1911، ص 213. ابن
- 33 ابن القاضي، المصدر السابق، ج 2، ص 410.
- 34 نضال مؤيد مال الله عزيز الأعرجي، الدولة المرينية على عهد السلطان يوسف بن يعقوب المريني، 685-706هـ / 1286-1306م، دراسة سياسية وحضارية، رسالة ماجستير، جامعة الموصل 2004، ص 145.
- 35 روجي ليتورنو، فاس في عصر المرينيين، تر: نقولا زيادة، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، بيروت، نيويورك 1967، ص 204.
- 36 روجي ليتورنو، المرجع السابق، ص 204.
- 37 نفسه، ص 206.
- 38 إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج 2، المغرب من بداية المرينيين إلى نهاية السعديين، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1978، ص 102.
- 39 عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 462.
- 40 بوزيان الدراجي، أدباء وشعراء من تلمسان، دار الأصل للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر 2011، ص 16.
- 41 عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني، ج 1، موقع للنشر والتوزيع، الجزائر 2002، ص 387-389.
- 42 عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ص 390.
- 43 يحيى ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من أبي عبد الواد، ج 1، تحفيف عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980، ص 109.
- 44 ابن قنفذ القسنطيني، الوفيات، تح: عادل نويمض، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت، 1983، ص 104.
- 45 يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ص 106.
- 46 عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ص 399.
- 47 ينظر بغية الرواد، المصدر السابق، ص 177.
- 48 ينظر عادل نويمض، المرجع السابق، ص 40.
- 49 عبيد بوداود، المرجع السابق ص 75.
- 50 نفسه ص 75.
- 51 ينظر ابن مريم البستان، المصدر السابق ص 211-246.
- 52 بوداود عبيد، المرجع السابق، ص 85.
- 53 نفسه ص 191.
- 54 عادل نويمض، المرجع السابق، ص 180.
- 55 منتغمري وات، في تاريخ إسبانيا الإسلامية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر لبنان 1988 ص 153.
- 56 منتغمري المرجع السابق، 154.
- 57 علي سامي النشار، أبو الحسن التشتري الصوفي الأندلسي، الزجال وأثره في العالم الإسلامي. ع 1. السنة الأولى، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مطبعة المعهد المصري مدريد 1953. ص 131، أحمد بن محمد المقرئ التلمساني نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس: دار الصادر بيروت 1988، ص 185. يقول عنه المقرئ: إنه عروس الفقهاء وأمير المتجربين وبركة لابس الحرفة من أهل العلم والعمل جال الأفاق ولقي المشايخ.

- ⁵⁸ علي سامي النشار. المرجع السابق، ص 137 ولد بشاطبة سنة 592هـ، وهو أحد الأئمة المشهورين بغزارة الفضل وكثرة العلم وأحد المشايخ الصوفية، المقرئ، المصدر السابق ص 64
- ⁵⁹ علي سامي النشار، المرجع السابق، ص 131
- ⁶⁰ إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن التاسع هجري (15 ميلادي)، ج 1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 2000، ص ص: 52-54.